فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

# المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

(قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق)

(مصر — ١٦ رجب سنة ١٣٢٣ — ١٥ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٥)

## تتمة سيرة الاستاذ الامام

### نموذج من كتبه وترسله

كتب من بيروت سنة ١٣٠٢ الى صديق عالم في بعض البلاد وفيه من الحث على احياء دين الله ، والاهتداء بكتاب الله ، مالا تجد مثله في كلام ، الا ان يكون لمثل علي عليه السلام ، قال رضي الله عنه

السلام عليكم ، تحية أخ يهزه التشوق اليكم ، وبعد فقد تلقيت اليوم كتابك وتشممت منه ريح الحمية ، والنعرة الدينية ، وأرجو ان تصل بك بدايتك الى مايختار الله لك من حسن النهاية ولم يكن ظني في همتك دون ماتبينت في عبارتك ، فليكن سرورك بنفسك ، على قدر شفقتك على دينك ، وحركة ميلك للاخذ بيده ، وتقويم أوده ، فانما هو الدين المتين الذي أطلق العقل من قيده ، وأخذ على الوهم في كيده ، وهز النفوس الى نيل الفضائل ، ونكب بها عن مشايعة الرذائل ، حتى ساد به الضعفاء وذلت لسلطانه الاقوياء ، وسبق وعد الله بأن يظهره على الدين كله ، والله

منجز وعده لاهله ، وانما خلقنا الله وكلفنا صرف هممنا اليه ، وتمويلنا في شؤوننا عليه ، وليس لنا من الحق في أنفسنا وأموالنا ، الا مانبذله في تأييد ديننا ، ولا حاجة لله فيمن لم يكن له من نفسه وماله نصيب

داوم قراءة القرآن وتفهم أوامره ونواهيه، ومواعظه وعبره، كما كان يتلى على المؤمنين والكافرين أيام الوحي وحاذر النظر الى وجوه التفاسير الا لفهم لفظ مفرد غاب عنك مراد العرب منه ، أو ارتباط مفرد بآخر خفي عليك متصله ، ثم اذهب الى مايشخصك القرآن اليه، واحمل نفسك على مايحمل عليه ، وضم الى ذلك مطالعة السيرة النبوية واقفا عند الصحيح المعقول ، حاجزا عينيك عن الضعيف والمبذول ، (*) واعتبر بما قاسى النبي وأصحابه من الجهد والعناء لنصر دين الله ، وما ركبوا من المتاعب ، وما احتملوا من المصاعب ، على ما تعلم من درجة قربهم الى الله وغفرانه لهم ماتقدم من ذنبهم وماتأخر ، واجعل عيشك للآخرة واستعد لما وعد فان سعادة أبدية ، لاتنال الا بسيرة محمدية ، ولن تنال بنوم موسد ، على فراش ممهد ، واعلم انك محاسب على الدقيقة من أوقاتك ، لاعزازدينك كانت لك والا كانت عليك ، وأرجو ان يكون كل سعيك خيرا يجعله الله نورا يسعى بين يديك ان شاء الله

اما ماذكرت من مسألة الشيخ ... فبودي لو توجه الى الله كل مسلم ، واعتصم بحبله كل مؤمن ، فما بالك بشيخ من جمال الوصف على ما ذكرت ، ومن علو المنزلة على مابينت ، فان تيسر لك السبيل فتقدم

(*) يريد بالمبذول تلك الموضوعات التي ينبذها روح الدين وتأباها قواعده العامة ونصوصه القطعية

لدعوته (أي إلى الاعتصام) وادخل اليه ابتداء من طريق لا يعرفه وتلطف له في القول وان شئت أطلعته على شيء من مقالات العروة الوثقى فاذا انتهيت به الى ما يعرف وآنست منه الميل والرضاء فإما ان يكتب إليّ وإما ان يستعد لتلقي كتاب مني ثم سراع إليّ بالخبر الخ

وكتب منها الى علم كبير في بعض البلاد في ٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠٢

أشد ما أجد من فراقك ، حرماني من محاضرة آدابك . والاقتباس من نوادر فضلك ، وتعرّف الصواب من صائب رأيك ، وإنما يخفف ألم البعد عنك أن أكون بمكان من فكرك ، وأصيب حظا من مراسلتك ، وجدير بكرمك ان تصل واصلا ، وتجيب سائلا ، وسلامي عليك وعلى أنجالك الصالحين ، والله ينفع المسلمين بسعيك وخالص نيتك والسلام اه

فانظر كيف كان إحياء الدين وهم المسلمين والسعي في إصلاحهم مما يدخل في كل أقواله ، كما كان مسيرا له في جميع أحواله ، فهل تزن بمثله من ليس لهم حظ من الدين ، الا الأكل به من السوقة والفلاحين ، لا يهمهم الا التحلق حول الموائد ، والتطواف لجمع النذور «والعوائد»

## قوة عقله وسعة علمه

يصف الناس كل نابغ بالذكاء الفطري ويعنون به سرعة الفهم وسهولة الحفظ ولذلك كنت تجد الناس مجمعين على وصف الاستاذ الامام بالذكاء النادر ، لا يختلف في هذا منصف ولا مكابر ، أما هو فكان يقول عن نفسه إنه متوسط في الذكاء وانه يوجد في كل مئة رجل ٧٠ رجلا مثله في فهمه . وعلى هذا كان يجب ان يكون ثلاثة أرباع الناس أو طلاب العلم منهم خاصة مثله ولكن الناس لم يروا في الملايين الكثيرة مثله وانك لتسمع

كثيرا من أهل الفضل يقولون ان الدنيا انما تلد مثل هذا الرجل في كل عدة قرون مرة وقالوا بعد موته ان الفراغ الذي حدث بفقده لا يملأ أحد في هذا العصر . وقد راجعناه في قوله ان ثلاثة أرباع الناس يسارونه في ذهنه وقلنا له كيف تحصل في الزمن القصير من العلم مالا يحصلونه في الزمن الطويل فقال ان الفرق بين الناس في هذا لا يأتي من الاختلاف في الذهن فقط وانما يأتي معظمه من الاختلاف في توجيه الارادة الى الشيء ومعرفة طريقه وغايته قبل طلبه . وهذه حقيقة لا مرية فيها ولكنها لم تذهب بامتراثنا في ان قوله ذلك من المبالغة بمكان وان كان قاله اعتقادا لا تواضعا وهضما لنفسه . على اننا نعرف من أصحاب الذكاء المدهش من كان ذكاؤهم وبالا عليهم خاصة أو عليهم وعلى كثير من الناس الذين يعرفون : فالعبرة بما قال وهو ان ادراك المقاصد انما يكون بصحة توجيه الارادة اليها وطلبها من طرقها الطبيعية

بلغ هذا الرجل من قوة العقل ان عجزت الأمراض الشديدة عن منعه المطالعة فكان يقرأ في أيام مرضه أكثر مما يقرأ في صحته التي تشغله فيها الأعمال . أتظن انه كان يقرأ كتب القصص والفكاهات ؟ كلا انما كان يقرأ العلوم العقلية والفلسفة وكتب التربية والتاريخ . وقد رأيته من مرضه الأخير ملله فيه من المطالعة وقال انه لم يعهد ذلك في مرض قط فقلت له هكذا شأن أمراض المعدة على ان كثرة الاعمال العقلية هي السبب الفعال في مرضك هذا كما يقول الأطباء . ولم يكن المرض يومئذ قد اشتدت وطأته

وقد أصيب بحمى التيفوس مرة في بيروت فبلغت نهاية شدتها وأعيى

حرارتها ولم يذهب عقله ولم يهذ لسانه حتى قال الطبيب الذي كان يعالجه انني لم أر مثل دماغ هذا الرجل ولو حدثت عن مثل مارأيت منه لما صدقت . وكذلك قال بعض الأطباء الذين زاروه قبل موته بأيام قليلة فقد دب التسمم في جسمه وعقله حاضر وذاكرته تملي على لسانه الأجوبة السديدة في وصف مرضه لمن يسأل عنه . وقد اتفقنا نحن الذين كنا نلازمه على ان لا نحدثه في الجد ولا مسائل العلم والاجتماع وان نمنع عائديه من الحديث في ذلك لاسيما بعد اشتداد المرض عليه ولكنه كان ينتقل بنا من الفكاهة الى الجد فاذا ساقت شجون الحديث مسألة عويصة أو عبارة احتجب معناها ، أسرع فهمه الى كشف الحجاب عن الخفايا فجلاها ، ونفث في عقدة العويص من عراها ،

أذن لنا بذكر الشعر والادب في يوم تواترت فيه نوبات الألم فكان مما أنشده حافظ ابراهيم من مختار محفوظه قول بشار :

اذا ما غضبنا غضبة مضرية * هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

وقال انني أنشد هذا البيت منذ سنين وأنا لم أفهمه وسألت عنه غير واحد من الادباء فلم يأت أحد بتفسير ترتاح اليه النفس فلم يلبث الامام ان قال ، والالم ينال من كبده ما ينال ، ان معناه ظاهر فانه يريد انهم اذا غضبوا سلوا سيوفهم وأشرعوا رماحهم فكان بريقها ولمعانها هتكا لحجاب الشمس الى أن يمكنوها من طلى أعدائهم وصدورهم فتخرج وهي تقطر دماء وتسيل مهجاً ، هنالك يخفى ذلك البريق واللمعان بستر الدم له ورينه عليه . فالضمير في قوله قطرت دما عائد الى السيوف أو الرماح وان لم تذكر بالقول فهي معلومة بالقرينة أي على حد قوله تعالى « إني أحببت حب

الخير من ذكر ربي حتى توارت بالحجاب » على التفسير المشهور

تأميك عن كان يقتل عامة نهاره وزلفا من ليله بحل المشكلات وامضاء الأعمال في معاهد كثيرة ولا يشكو تعبا ولا يخاف مللا ، كان يصبح فيغدو الى مجلس الشورى مثلا فيجلي المسائل الموضوعة للبحث سواء كانت قضائية أو إدارية أو مالية ويؤلف بينها وبين مصلحة البلاد ويؤيدها بالحجج القانونية والعقلية التي تقنع الحكومة بعد اقتناع الاعضاء ثم يخرج من هذا المجلس فيأكل طعام الغداء ويذهب الى الازهر فان كان اليوم يوم جلسة الادارة جلسها وعمل فيها عمله ثم ينتقل الى مكتب الافتاء حيث كان ينتظره أصحاب الحاجات المختلفة في جميع مصالح الحكومة وغيرها والمستفتون والزائرون وكتاب الجمعية الخيرية والازهريون من علماء ومجاورين فينظر في هذه الأمور الى ما بعد العصر ثم يخرج الى ديوان الاوقاف ان كان اليوم يوم جلسة المجلس الاعلى أو الى مجلس ادارة الجمعية الخيرية ان كان اليوم يوم جلسته ثم يعود عند الغروب الى الازهر فيقرأ الدرس فيخرج بعد العشاء قاصدا داره فيجد العفاة وأصحاب الحاجات ينتظرونه في المحطة وفي البيت يعرضون عليه حاجاتهم وبعد هذا كله لم تكن تخلو داره ليلة من السامرين يتكلمون في العلم والادب والمصالح العامة والخاصة . ولا تنس ان الايام التي لم تكن موعد الجلسة في تلك المجالس الرسمية هي التي تقرأ فيها أوراق تلك المجالس ، ولكنه كان على ذلك العقل الكبير والعرفان الغزير كثير النسيان للأمور الجزئية لا سيما أسماء الاعلام حتى انه نسي اسم نفسه مرة . ذهب لزيارة صديق له فلم يجده فسأله البواب عن اسمه ليخبر مخدومه به فتوقف الاستاذ في الجواب ذهولا عن اسمه فقال الخادم أقول الشيخ

محمد عبده : قال نعم فأنت اعرف باسمي مني

أتقن جميع العلوم الاسلامية وضرب بسهم في العلوم والفنون العصرية قبل تعلم اللغة الفرنسية وقد أتقن هذه اللغة في سن الكهولة وتوسع بها في العلوم على طريقة الافرنج وكان يعنى بالعلم على قدر الحاجة اليه في العمل والاصلاح . فأما علوم اللغة العربية فقد بلغ منها ان كان ادق الناس فهما للقرآن ، ولغيره من فصيح الكلام ، وأبلغ الكتاب بلا منازع ، وأخطب الخطباء بلا مدافع ، وأما العلوم العقلية فقد ارتقى فيها الى أن كان فيلسوفا حكيما اعترف له بذلك من يعتد بمعرفتهم . ونذكر هنا تفسيره لكلمة فيلسوف . حدثنا في طرابلس الشام قال كنا في مجلس بعض الوجهاء بمصر وكان في المجلس بعض أهل العلم وحملة الاقلام من السوريين . فقال ما معناه ان الناس قد ابتذلوا لقب فيلسوف فصاروا يطلقونه على غير أهله وكان أطلق هذا اللقب في جريدة على بعض الحاضرين فجرى ههنا كلام في معنى كلمة فيلسوف قيل الفيلسوف هو الذي يتقن جميع العلوم قال الاستاذ اذاً لم يوجد فيلسوف في الارض قيل هو الذي اتقن بعض الفنون وله إلمام بسائرها قال ان جميع الذين يتعلمون على الطريقة الحديثة يخرجون على إلمام بجميع العلوم العصرية ويتقنون بعضها فما أكثر الفلاسفة في المهندسين والأطباء وفي التلامذة أيضا . ثم قال بعد كل مقال : الفيلسوف هو الذي له رأي ومذهب في العقليات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه

وأما العلوم الشرعية فقد كان فيها إماما مجتهدا وان كبرت هذه الكلمة عند الذين سجلوا على أنفسهم الحرمان من فضل الله على المتأخرين ،

وإيتائهم من العلم والفهم ما آتاه المتقدمين ، وناهيك بفهمه في القرآن ووقوفه على أصول الشريعة وحكمها وأسرارها وقوة حجته في إثبات عقائدها ودفع الشبهات عنها وتطبيق أحكامها على مصالح البشر . ولست أعني بكونه إماما مجتهدا في الشريعة انه صاحب مذهب دونه أو كان يريد أن يدونه وانما أعني ماذكرت آنفا من فهمه الدين أصوله وفروعه بالدلائل والبراهين والفقه فيه والوقوف على حكمه والقدرة على بيانه بدون تقليد عالم معين من العلماء السابقين والأئمة المهديين الذين اتبع آثارهم واهتدى بهديهم . وكان يرى ان من يضع للناس مذهبا جديدا فانما يزيدهم عمى وجهلا وتفرقا واختلافا

## أخلاقه وشمائله

الأعمال ثمرات الأخلاق فاذكرناه من أعمال الرجل تمثل بعض أخلاقه لانها بعض آثارها وان وراء ذلك من أحاسن الخلال ، وآيات الكمال ، ماتقصر عن تمثيله جلائل تلك الأعمال ، ولقد كملت للاستاذ الأمام أصول الفضائل الأربع ، وما نشأ عنها وتفرع ، وانا نشرح بعض أخلاقه لتكون قدوة للمقتدين ،

طبع الله هذا الرجل على عزة النفس وعلو الهمة من أول نشأته وقد أدركه السيد جمال الدين الذي درج في حجر السيادة وترعرع في بيت الامارة وهو مجاور في الأزهر ومنقطع إلى التصوف يلبس قميصا يبدو من أعلى جيبه صدره الاشعر وقد أرسل جمة كجمة الدراويش فرامه من صاحب هذا التقشف ماعنده من العزة والاباء وحفظ الكرامة ورقة شعور الشرف وأكبر ان يكون هذا أثر التربية والتخلق في بلاد سامها الظلم وتحكم فيها الجور المذلل للنفوس وكأنه سبق إلى نفسه أن هذا أثر وراثة

لأحد آبائه الاولين ، وانهم لابد ان يكونوا من الملوك والحاكمين ، فقال له مرة : « قل لي بالله أي أبناء الملوك أنت » : وهذا الخلق هو ركن الفضائل الركين ، وناهيك بقول الله تعالى « ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين » ، وهو الباعث على تلك الأعمال ، والحامل على الاستهانة بما بين يديها من الاهوال ، وقد يشتبه على كثير من الناس هذا الخلق الكريم ، بخلق الكبر الذميم ، ولذلك كان بعض الحاسدين والجاهلين ينبز الاستاذ الامام بهذا اللقب لا سيما عندما كانوا يرونه مترفعا عن الدهان والتملق للكبراء ، معرضا عمن يعارضه في مقاصده وان كان من العظماء ، ولو عاشروه ناظرين بعين الانصاف لرأوا حقيقة التواضع مع الرفعة كيف تكون . لرأوا كيف كان ذلك الرجل العظيم يخدم الفقير والمسكين ، ويتجافى جنبه عن مضجعه لاجل العفاة والمستفيدين ، ومن دقائق ملاحظته في التواضع انه كان يتحامى صيغة الطلب الجازم في مخاطبة أصدقائه ومحبيه ، بل وتلامذته ومريديه ، فيستبدل بالأمر الاستفهام والتخيير ويوسع للمخاطب العذر قبل أن يحتاج الى الاعتذار ثم اذا أخلف معه يتناسى فلا يقابله بلوم ولا عتب . أذكر من لطائفه في هذا الباب قوله لي مرة : اني أكون غدا في مكان كذا بعد الظهر فان ذكرت ذلك ووجدت فراغا وأحببت أن تجيء فعلت : ذكر كل هذه القيود وأنا اعلم انه يريد ان أوافيه حتما ولولا ذلك لذكر لي أنه يكون في ذلك المكان ولم يزد كعادته معي إذ كان يخبرني بمواقيته

وقد عرف رحمه الله تعالى بسلامة الصدر وصفاء القلب والحلم والصفح فما انتقم من مسيء ولا سعى في ضرر أحد قط بل كان يحسن

الى من أساء اليه اذا استنجده أنجده ، واذا استرفده أرفده ، وان عاد الى الاساءة سبعين مرة . وكان أهل الخبث والمنكر من حاسديه يظنون أنهم يخدعونه بدهائهم ودهائهم ولكن فراسته كانت تخترق صدورهم ، وتنفذ الى سواد قلوبهم ، ويقرأ في صحائف وجوههم الاولى ، ما رسم على صحائف وجوههم الاخرى ، وإنما يقبل منهم ما أظهروا ، ويتغاضى عما أضمروا ، عملا بما ورد في الخبر « اصنع المعروف مع أهله ومع غير أهله فان اصبت أهله فقد أصبت أهله وان لم تصب أهله فأنت من أهله » وكان يعجبه قول أفلاطون : استصلاح العدو أحزم من استهلاكه :

نعم كان يغلب عليه حسن الظن وبذلك رفع أناسا الى مراتب لم يكونوا أهلا لها والناس يعدون ذلك عليه ويغفلون عن عذره فيه وهو ان من رفعهم ورقاهم كان لابد للاعمال التي رقاهم اليها من عاملين فحسن الظن ببعض من يمكن ان يعهد اليهم العمل وناطه بهم فمنهم من ظهر بالاختبار ان ظن الخير فيه صادق فكان صالحا للخدمة شاكرا للصنيعة ومنهم من ظهر بعد التجربة لؤمه ، وتبين فساده وشؤمه ، فلم يصلح عملا ، ولم يشكر صنعا ، ومن هذا الفريق من أساء الى من أحسن اليه ، وكفر حقوق المنعم عليه ، ومنهم من أظهر الوفاء ، في وقت الرخاء ، وأظهر حقده وضغنه ، عند الضراء والمحنة ، وليت شعري ما حيلة الرجل الذي جبلت طينته على الاحسان وتوجهت همته الى الخدمة العامة ، وقد نشأ في قوم فشا فيهم فساد الاخلاق ، وقل فيهم الوفاء والاخلاص ، أيمكن ان يقال له لا تسد الى أحد معروفا ، ولا تسع الى أحد بخير ، إلا بعد ان تجربه عدة سنين ، فتعلم انه من المصلحين والشاكرين ، كيف وانما يجرب الرجل بما يعهد اليه من الاعمال ،

وما يعامل به من البر والاحسان ،

على أني لا أنكر انه كان لسلامة قلبه يفيض أمام بعض من يعتقد إخلاصهم بما لا تسع عقولهم ، ويفضي إلى بعضهم بما تضيق عنه صدورهم ، وانه كان لمبالغته في الحلم يعفو عمن لا تعفو المصلحة العامة عنه ، ويصفح عمن يقتضي الاصلاح بالانتقام منه ، وقد كان يكون هذا العفو والصفح مما يخفى على من عفا وصفح عنهم ، كما كان يخفى الانتقام لو انه انتقم منهم ، ولعله لولا هذا الخلق لكان نجاحه أسرع وأتم ، وإصلاحه أشمل وأعم ،

وكان من الكمال في الوفاء لأصدقائه ، والغيرة على أحبائه ، بحيث يهتم بشأنهم في السر والجهر والبعد والقرب والغيب والشهود بمثل ما يهتم آباؤهم وأبناؤهم او أشد وكثيرا ما تراه يسعى في دفع الشر عنهم وفي سوق الخير اليهم بأشد مما كانوا يسعون لأنفسهم . وما من صديق ولا محب له وإلا وكان آمنا من انحرافه عنه ، بل من توانيه في الاتصال له ، تأثرا بقول واش محال ، أو رهبته من كيد قوي ذي محال ، أو طمعا في جاه أو مال ، وقد كان في وفائه هذا خير قدوة لمعاشريه والمتصلين به يربي نفوسهم بأخلاقه وسيرته ، كما يربي عقولهم بعلمه وحكمته ، فيريدوه ويحبوه أشد الناس وفاء لمن يحبون ، وأعظمهم إخلاصا لمن يصطفون ،

وقد كان على ما علمت من صفحه عن الأعداء وكمال الوفاء للاحباء والاحسان لأولئك وهؤلاء ، لا يخاف في طريقه الى الاصلاح عدوا مبينا ، ولا يعتمد فيه على الصديق وإن كان ناصحا أمينا ، وانما كان مستقلا برأيه مع الاستشارة ، مستقلا بارادته مع الاستعانة ، واثقا بأن الله يؤيده ويسخر له الناس لإخلاصه لله وللناس ، يستخدم في سعيه كل من

استطاع استخدامه من موافق ومخالف ووطني وأجنبي ولكنه لا يعتمد في قلبه على أحد من الناس ولا يغتر بأحد منهم . كان في الناس من يظن بأن السبب في شجاعته وقوة عزيمته في عمله وتفوقه عند الحكومة وإدلاله عليها هو اعتماده على حزبه الكبير الذي يضم جماهير العقلاء والفضلاء والكتاب والادباء ، وفيهم من يظن أن جراءته ومضاءه وإقدامه من ثقته بتأييد الحكومة له والقوة المحتلة من وراء الحكومة . أما هو فكان يعتقد أنه لا حول له ولا قوة الا بالله العلي العظيم وما وهبه من العزيمة والاخلاص . وقد كلمته مرة في هذا فأقسم بالله انه يشعر بأنه في هذا الوجود كالعريان الذي ليس له فيه شيء ، وانه لا يعتمد على شيء الا على الله وهو المسخر لمن يشاء

وكان رضي الله عنه معتصما بحبل الصدق ، متحريا ما يعتقد انه حق ، واذا تذكرت ان علة العلل لفشو الكذب في الناس هي شدة ظلم الحكام ، واستبداد ذوي السلطان ، وأن أكذب الناس أكثرهم قربا من الظالمين ، ومعاملة للحكام المستبدين ، علمت أن ملكة صدق اللسان لا تربى الا في حجر شجاعة القلب وجرأة الجنان ، ولولا شجاعته لما نادى بمقاومة الاستبداد والاستبداد – كما قال – في عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ولما حافظ على رأيه واعتقاده وان خالف العلماء والحكام ، وخالف الجماهير المعبر رأيهم بالرأي العام ،

هذان الخلقان – الصدق والشجاعة – هما شرطان للقدرة على الاصلاح فالكذوب والجبان عدوان لله لا يصلحان لشيء من الخير ولا يصلح بهما شيء . وان التزام الصدق في أمة فشا فيها الكذب ، واعتادت على الدهان والملق ، من أشق الامور على النفوس ، وأبعدها عن طاعة التهذيب ، لما له من

الاشراف إحفاظ القلوب، والتأثير في إثارة البغضاء، وتكثير سواد الاعداء وتنفير المحبين والاصدقاء، فكيف يتكلفه المتكلف مع هذه المنفرات عنه، والمرغبات في ضده، ثم كيف يكون ملكة نفسية، لا تكلف فيه ولا روية، لا تحسب الامر سهلا فان الظهور بمخالفة اهواء العامة مما يجبن امامه الملوك القاهرون، وينكمش دونه العلماء العاملون، ولهذا يدهن الرؤساء للمرؤسين، ويدهن المرؤسون الامراء والسلاطين، فالصدق فيما لا يرضي العامة، أشد من الصدق فيما لا يرضي الخاصة، فما بالك بالصادق فيما قد يغضب الفريقين، والصابر على الطعن من الجانبين، أليس هو في مرتبة الصديقين، التي تلي مرتبة النبيين والمرسلين»؟

رأيت الاستاذ الامام في النوم بعد موته بأيام فقال لي ان الله تعالى أعطاني مقام الصدق أو قال اني في مقام الصدق فتذكرت كلام الشيخ محي الدين بن عربي في مقام الصدق ومحال الصدق ومنه ان صاحب حال الصدق يكون كثير الظهور بالولاية والكرامة كثير الدعوى بحق وصاحب مقام الصدق أعلى وأكمل ويكون في الولاية مجهولا لا يعرف، ونكرة لا تعرف، وتذكرت جهل الناس بمقام الاستاذ الامام في ولايته والعرفان، احتجابا بظهوره الدنيوي ومعارفه الكونية، عن مرتبته الروحية ومعارفه اللدنية، واستيقظت وعلى لساني قوله تعالى «ان المتقين في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر»

ان ما ذكرناه من الشجاعة في التزام الصدق، والمجاهرة بنصرة الحق، هو ما يعبر عنه كتاب العصر بالشجاعة الأدبية وانت لا تجهل ان من لا يهاب في الحق وثبات الحكام، ولا يخاف طعن الخواص والعوام، فهو

جدير بأن لا يخيفه الحسام ، ولا ترهبه السهام ، كاشفني رحمه الله مرة بكتاب جاءه بغير توقيع يهدده مرسله فيه بالقتل اذا هو ظل مسترسلا في عمل نسب اليه ورأيته غير مبال به ولا مكترث فقلت له ان لك أعداء لا يخافون الله وانك تجيء دارك في الليل وهي في الخلاء بعيدة عن العمران فلو نظرت في ذلك : فقال أو يخاف علي من مثل هذا الكاتب المهدد ؛ انني لم أهنيء نفسي الى الآن بأنه وجد في وطني من تجرأ علي بكلمة «أخطأت» . وسألته مرة ماذا تصنع اذا هجم عليك لص في الليل أتطلق عليه الرصاص من هذا المسدس — وأشرت الى مسدس معلق بسرير نومه — فقال لا يجوز اطلاق الرصاص في البيت فانه يزعج النساء والعيال وليس عندي للص الا القبض عليه والاخذ بطوق رقبته . وكذلك يفعل

ومن خلائقه الانصاف في الرأي والعلم ، كالانصاف في الحكم ، والبعد عن المكابرة ، في المذاكرة والمناظرة ، فلم يكن يزدهيه الغرور والاعجاب ، بسعة العلم وكثرة الصواب ، ولا كان يصده الارتقاء عن مرتبة المقلدين ، عن الرجوع الى رأي أحد التلاميذ والمريدين ، بل كان رجاعا للحق اذا ظهر له ، يحترم فهم غيره ورأيه ، وهذا الخلق عزيز في العلماء ، لاسيما ذوي الشهرة والجاه ، ومن طلب آية على هذا فليرجع الى ما كتبه الامام الغزالي عنهم في بيان آفات المناظرة من كتاب العلم في الاحياء . فاذا علم بما كان يجري والعلم حي والامة عزيزة — ومن لوازم ذلك الانصاف — فما ظنه بهذا الخلق في خلف لم يبق لهم من عزة سلفهم الا الفخر بها ، ولا من علمهم الا الحكاية عمن قلدهم فيه ،

من آيات انصاف استاذنا ورجوعه الى الحق ماهو مدون في المنار .

لم ينس القراء ما نشرناه له في تفسير «وأما السائل فلا تنهر» اذ اختار قول بعض المفسرين ان المراد بالسائل من يسأل عن العلم ويطلب التفقه في الدين وذكر فيما كتبه في تفسير جزء عم ان لفظ السائل لم يرد في كتاب الله عنوانا للفقير والمسكين فظن بعض من قرأ ذلك ان قوله يفيد ان لفظ السائل لم يرد في القرآن بمعنى طالب المال . فذكره رجل من عمد البلاد بقوله تعالى « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » فحسب انه أخطأ فيما كتب فأرسل الي ورقة صغيرة يصرح فيها بخطئه نفسه وكلفني طبع عشرة آلاف نسخة منها بعدد ما طبع من كتاب تفسير «جزء عم» لتلصق بنسخ التفسير وأمر الجمعية الخيرية بأن تمسك عن بيع الكتاب حتى تطبع الاوراق وتلصق فرجعت الى الجزء فرأيت عبارته صحيحة الا انها مبهمة ليست كالمعهود في بيانه فراجعته في ذلك ولم أطبع الورقة فعاد الى التأمل في العبارة ورجع الى مسودات تفسير الجزء فتذكر انه ما كتب تلك العبارة في السائل الا وهو ذاكر لما توهموا انه ينافيها من قوله تعالى « وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » وقوله تعالى « والسائلين وفي الرقاب » ثم كتب ما كتب في إيضاح العبارة واعترف بما فيها من الابهام واستغفر الله من العود الى مثله وقد نشرنا ذلك في ص ٨١٥ من المجلد السابع من المنار فليرجع اليه من شاء

وكان هذا الاوّاب الرجاع الى الحق جبلا راسخا في الثبات والاستقامة لا يرجع عما شرع فيه فكيف يطمع في رجوعه عما طبع عليه لانه كان لا يقدم على العمل إلا بعد الرّوية والتدبر والبصيرة والتثبت وقد كان السيد جمال الدين يقول فيه هو كالفلك لا يتغير قال هذا بعد ما غاب غيبته في بلاد

المشرق ثم عاد إلى أوربا ورأى فيها جماعة ممن كان يعرف قد تغيروا عما كان يعهد الا الشيخ محمد عبده فانه لقيه كما تركه

ولا حاجة إلى الكلام في جوده وسخائه فانه صار فيه على اكتتامه الصدقة وإخفائه البذل أشهر من علم وعرف الناس كثيرا من البائسين والمعوزة الذين كان يعولهم ويوصيهم بالكتمان. ولم يكن في أيام السراء أبسط يدا منه في أيام الضراء، لقيه صاحب في بيروت فقال له ان والدي قد توفي وليس لدي ما أنفقه في تشييعه فأعطاه كل ما كان يملكه من النقد وهو راتبه الشهري من المدرسة السلطانية كان قد قبضه ولم ينفق منه شيئا ولكن الله أخلف عليه بما لم يكن يحتسب فقد كان له دين عند رجل في مصر يلويه ويمطله به أيام كان يتقاضاه، وهو يراه فيستحي منه ويخشاه، فما مر يوم على بذل جميع ما في يده وايثار صديقه على عياله حتى آذنه مصرف ( بنك ) بيروت بأن حوالة برقية جاءت باسمه من مصر واذا هي دينه على ذلك الرجل «ومن يتوكل على الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب» وكان اذا وفر شيئا من النفقة صرفه في سبيل البر. كان يدخن بالفاف المعروفة بالزنوبة وبالنارجيلة ( الشيشة ) ثم ترك التدخين بالمرة وجعل ما كان ينفقه فيه صدقة ولولا بعض أصدقائه لما امتلك من طين هذه الارض شيئا ولا حاجة الى بيان ذلك هنا

لعلي لا احتاج إلى التنويه بغيرته على ملته وأمته فان بذل حياته كلها في السعي بتربية الأمة على آداب الملة لم يكن الا أثرا من آثار هذه الغيرة فالدليل وجودي عملي عرفه القريب والبعيد واعترف به العدو والصديق ولكني أذكر في هذا الباب شيئا لا يعرف نظيره إلا بعض أصفيائه الذين

لم يغب عنهم شيء من أحواله

جئته مرة في رمضان (سنة ١٣١٥) بعد الظهر على موعد فقيل انه نائم ولم يكن ينام في مثل هذا الوقت بل كان ينام طائفة من الليل ثم يقوم في السحر ويلبث بعد السحور الى أن يصلي الصبح ثم ينام حتى ترتفع الشمس فكثت ريثما استيقظ فسألته ما أنامه قال ما معناه ارقني الليلة الفكر في حال المسلمين وما نزل بهم من البلاء ببعدهم عن دينهم واتباع أهوائهم وشهواتهم وقوي سلطان الفكر فهاج المجموع العصبي ونبه تنبيها شديدا حتى حدثتني نفسي بأن أنزل الى حيث يكثر اجتماع الناس كالموسكي والازبكية فأقف في الطريق وأنادي أيها الناس ماذا رأيتم في دينكم من القبيح حتى تركتموه ، وماذا رأيتم فيما اخترتم بديلا منه حتى تقلدتموه ، ثم أخطبهم في حقيقة ما هم فيه ، وأنذرهم عاقبة ما هم عليه ، وأبين لهم طريق النجاة منه ، وقد عالجت النوم فلم أملك منه شيئا فلجأت الى الكتابة وما كنت لأكتب في الليل فجرى القلم بفصل جعلته آخر فصول رسالة التوحيد فثابت الي بعد ذلك نفسي وران النوم على عيني ولكن الليل قد آذن بالرحيل فلم أنل منه نيلا فكانت هذه النومة في النهار عوضا عما فاتني في الليل

أقول قد عرف من سبق له قراءة رسالة التوحيد ان الفصل الذي كتبه في تلك الحالة هو الفصل الذي عنوانه (انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ ٠) ولعمري ان ذلك الفصل لقول فصل ، وما هو بالهزل ، أملاه على كاتبه الالهام ، حتى كاد يكون معجزة من معجزات الاسلام ، وقد قال في أوله

« ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ولقي من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل ، اوذي الداعي صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء واقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله ، وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق ، وطردوا من الدار ، وسفكت منهم دماء غزيرة ، غير ان تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر يثبت الله بمنظرها المستيقنين ، ويقذف بها الرعب في أنفس المرتابين ، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهي ذوب ما فسد من طباعهم فتجري من مناخرهم مجرى الدم الفاسد من المفصود على أيدي الأطباء الحاذقين « ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون » تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليصدوا نبته ، ويخنقوا دعوته ، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء ، والفقير للاغنياء ، ولا ناصر له الا انه الحق بين الأباطيل ، والرشد في ظلمات الأضاليل ، حتى ظفر بالعزة ، وتعزز بالمنعة ، وقد وطىء أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع المكاره ، ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي فلاحاً ، ولا انالهم القصد نجاحاً » الخ

وجئته مرة في داره بعين شمس (سنة ١٣٢١) وكان قد وعدني غداة يومه فرأيته ينظر في ثلاثة كتب عربية يقرأ المسألة في كل منها فسألته مابك وما هذا الذي تنظر فيه فقال هو الهيج العصبي الذي يلم بي أحيانا من الفكر في الامور العامة وهذه كتب في أصول الفقه ألهو بمباحثها عن

القرآن فانني اذا فكرت فيه رأيت بعد المسلمين عنه فيقوى التهيج المصبي

واما عاداته فقد كان يخالف فيها علماء هذه الديار يخالفهم فيما يكره شرعا أو عقلا كتطويل الأردان وتوسيعها وجر الاذيال فكان زيه أقرب إلى زي علماء سوريا منه إلى زي علماء مصر . وكان يكره أن تقبل يده بل يصافح الناس مصافحة وقد منع الأزهريين عن تقبيلها بعد الدرس كعادتهم . وكان يكره ان ينشد أمامه شعر أو يقرأ شيء في مدحه يكره ذلك رأيا وشعورا فيتألم لسماعه وينفر منه . ولما كتب ما كتب في الرد على مقالات هانوتو في الاسلام ونشر ذلك في المؤيد معزوا الى أحد أئمة الاسلام لم يخف على الناس أنه هو الكاتب لاعتقادهم انه لا يوجد في مصر من يقدر على مثل ذلك غيره وقد ذكر هذا أمامه فظهر التغير على وجهه وقال إنه لا يؤلمه شيء مثل هذا لانه إقرار بأن أمته بلغت من الجهل ان انفرد فيها واحد بالقدرة على أداء بعض الواجبات التي كان من الضروري أن يضطلع بها كثير من أفرادها في كل بلد وأي ألم أشد من ألم من يحب ارتقاء أمته ورفعة شأنها وهو يراها بهذه الحال من العجز (قال) ومن البلاء ان يعجز الانسان في هذه البلاد عن التنكر في بعض الخدم التي تقضي المصلحة بتنكر من يخدم الأمة بها . وقد ذكرني قوله هذا قولا آخر له قريبا منه وهو إنني أحب لو يكون في قومي كثير من الناس الذين يفضلونني في كل علم لأن ذلك يعينني على تكميل نفسي بالرجوع إليهم فيما أجهل والاستعانة بهم على ما أعجز ومن أكبر المصائب على محب العلم ان لا يجد من يستمد منه فيقف علمه عند حد بحثه لا سبيل إلى ضم بحث غيره إليه .

(لها بقية)